القسم الأول

طبيعة الحياة النفسية

الفصل الأول

الجهاز النفسى

يضع التحليل النفسى مسلمة أساسية على الفكر الفلسفى مناقشتها، وإن كان تبريرها يقع فى نتائجها . فإن ما نسميه نفسنا (الحياة النفسية) معروف لدينا على نحوين : الأول عضوها الجسمى ومسرحها ذاتهما ، أى المخ (الجهاز العصبي) ، والثانى أفعالنا الشعورية وهى معطيات مباشرة لا يمكن لوصف أيًّا ما كان أن يزيدها قرباً منا. وكل ما يقع بين هذين الطرفين مجهول لنا . وليس ثمة علاقة مباشرة بينهما على ما نعلم . وإن كان ثمة علاقة فهى لا تزودنا إلا بتعيين دقيق لمراكز العمليات الشعورية ولكنها لن تعيننا فى شىء على فهمها .

ويتصل فرضانا بهاتين النهايتين أو البدايتين لمعرفتنا . الفرض الأول خاص بتحديد مناطق العمليات النفسية[١] . فنحن نفترض أن الحياة النفسية وظيفة لجهاز نصف امتداده المكانى وتألفه من أقسام عدة ، ونتصوره بهذه المثابة شبيهاً بالمنظار المقرب أو بالمجهر أو ما إلى ذلك . ويعتبر تتبع هذا التصور إلى غايته تجديدا علميًّا ، رغم ما حاوله البعض من قبل للاقتراب من هذا التصور[٢] ..

وقد حصلنا على ما نعرفه عن هذا الجهاز النفسى من دراسة التطور الفردى للوجود الإنسانى ، وقد أطلقنا على أقدم هذه المناطق (أو المنظمات) النفسية اسم الهو ، ومضمونه كل ما هو موروث ، كل مايظهر عند الميلاد ، كل ما هو مثبت فى الجبلّة . لذا فهو يتألف أولا وقبل كل شىء من الميول الغرزية التى تصدر

(١) الفرض الثانى خاص باللاشعور ولايعرض له فرويد إلا فى الفصل الرابع . المترجمان .

(٢) الإشارة هنا إلى الفيلسوف وعالم النفس الألمانى فشنر (١٨٠١ – ١٨٨٧) المترجمان .

راجع « تفسير الأحلام » لفرويد ، ص ٢٧ وما يليها . ترجمة مصطفى صفوان . دار المعارف القاهرة ١٩٥٩ .

عن التنظيم الجسمي وتجد ههنا أول تعبير نفسي عن ذاتها فى صور نجهلها .

وبتأثير العالم الخارجي الواقعي المحيط بنا ، يطرأ على جزء من الهو تغيير خاص . فما كان فى الأصل طبقة لحائية مزودة بأعضاء لتلقى المنبهات وبأجهزة للوقاية من الإثارة ، ينشأ عنه تنظيم خاص يتوسط الهو والعالم الخارجي . وهذا القسم من حياتنا النفسية نسميه الأنا .

الخصائص الرئيسية للأنا : يسيطر الأنا على الحركات الإرادية ، نتيجة للعلاقة السابقة التكوين بين الإدراك الحسي والفعل العضلي ، كما يقوم بمهمة حفظ الذات . وهو يؤدى هذه المهمة بأن يتعلم معالجة المثيرات الخارجية ، فيدخر خبرات تتعلق بها (فى الذاكرة) ويتفادى المثيرات المفرطة فى القوة (بالهرب) ، ويستقبل المثيرات المعتدلة (بالتكيف) . وهو يتعلم أخيراً تعديل العالم الخارجي تعديلا يعود عليه بالنفع (النشاط) . فى الداخل – تجاه الهو – يكتسب السيادة على مطالب الدوافع الغريزية ، بأن يقرر ما إذا كان يجب السماح لها بالإشباع أو إرجاء هذا الإشباع لأحيان وظروف مواتية فى العالم الخارجي أو قمع تنبيهاتها أصلا . وهو فى أفعاله خاضع لاعتبار التوترات التى تحدثها المنبهات القائمة فيه أو الواردة عليه فيستشعر ارتفاعها ألمًا وانخفاضها لذة . بيد أن من المحتمل أن ما يستشعره لذة أو ألما ليس الدرجة المطلقة لهذه التوترات بل هو شيء مرده إلى إيقاع تغيرها . والأنا يسعى وراء اللذة ويتجنب الألم . والزيادة المترقبة أو المتوقعة فى الألم يستجاب لها بنذير القلق ، والمناسبة التى تحدث فيها ، سواء كانت تهدده من خارج أو من داخل ، تسمى خطرا . وبين الحين والحين يفقد الأنا صلته بالعالم الخارجي ويعود إلى حالة النوم ، حيث يحدث فى تنظيمه تغيرات بعيدة المدى . ويمكن أن نستنتج من حالة النوم أن هذا التنظيم ما هو إلا توزيع معين للطاقة النفسية .

وكراسب من رواسب فترة الطفولة الطويلة التى يعيش فيها الإنسان الناشئ معتمداً على والديه ، تتكون فى الأنا منظمة خاصة يمتد فيها تأثير الوالدين هذا

ويطلق عليها اسم الأنا الأعلى . وبقدر ما ينفصل هذا الأنا الأعلى عن الأنا أو يعارضه ، فهو يكون قوة ثالثة ينبغي على الأنا أن يعمل لها حسابها .

ومن ثمة يكون الأنا مصيباً في فعله إذا أشبع مطالب الهو والأنا الأعلى والواقع في نفس الآن. فتمكن من التوفيق بين مقتضياتها المتباينة. ويمكن — بلا استثناء — تفهم تفاصيل العلاقة بين الأنا والأنا الأعلى بالرجوع إلى علاقة الطفل بوالديه . ولا يقتصر تأثير الوالدين — بطبيعة الحال — على طبيعة الوالدين فحسب ، بل إن من خلالهما ليظهر التأثير المتأصل للتقاليد العائلية والعنصرية والقومية ، كما تدخل فيه مطالب البيئة الاجتماعية التي يمثلانها . وعلى النحو نفسه يتلقى الأنا الأعلى للطفل — إبان تطوره الفردي — إضافات جديدة من خلفاء الأبوين ومن يقوم مقامهما في الأطوار اللاحقة كالمعلمين والشخصيات البارزة في الحياة العامة والمثل العليا الموقرة في المجتمع . ومن البين أن الهو والأنا الأعلى — على تباينهما الأساسي — يتفقان في أنهما يمثلان الماضي . فالهو يمثل آثار الوراثة ويمثل الأنا الأعلى — في جوهره — ما أخذ عن الآخرين . أما الأنا فمحدد — في المحل الأول — بما يخبره بالذات أي الأحداث العرضية الفعلية . وهذا التخطيط العام للجهاز النفسي يمكن أن يصدق بالمثل على الحيوانات العليا الشبيهة بالإنسان من الناحية النفسية . ويجب أن نسلم بوجود الأنا الأعلى حيثما وجدت فترة طويلة من الاعتماد الطفلي ، كما هو الحال عند الإنسان . أما التمييز بين الأنا والهو فأمر لابد من التسليم به .

ولم يتناول بعد علم نفس الحيوان المشكلة الشائقة التي عرضناها ههنا .

الفصل الثانى

نظرية الغرائز

تعبر قوة الهو عن الغاية الحقيقية لحياة الكائن العضوى . وتنحصر هذه الغاية فى إشباع حاجاته الفطرية . ولا يمكن وصف الهو بأنه يستهدف المحافظة على الحياة ولا اتقاء الأخطار باستخدام القلق . فتلك مهمة الأنا ، الذى يجب عليه أيضاً أن يكتشف أنسب الوسائل وأقلها خطرًا للحصول على الإشباع ، مع اعتبار العالم الخارجى ، وقد يكون للأنا الأعلى مطالب جديدة ، ولكن وظيفته الرئيسية تظل تقييد الإشباعات .

والقوة التى نفترض وجودها وراء توترات حاجات الهو نسميها الغرائز . وهى تمثل المطالب الجسدية لدى الحياة النفسية . ومع أنها هى العلة الأخيرة لكل نشاط فهى محافظة بالطبع ؛ وكل حالة يبلغها الكائن تولد حنيناً إلى استعادة حالة تركها لتوه . ويمكن أن نميز بين عددغير محدود من الغرائز ، بل إن هذا هو السائد فعلا . أما بالنسبة لنا فيهمنا إمكان إرجاع هذه الغرائز العديدة إلى عدد قليل معين من الغرائز الأساسية . وقد علمتنا التجربة أن من الممكن للغرائز تغيير هدفها (عن طريق الإزاحة) وأنها يستطيع أن يحل بعضها محل البعض ، بأن تنتقل طاقة غريزة ما إلى أخرى والعملية الأخيرة لاتزال غير مفهومة تماما . وبعد تردد وتذبذب طويلين استقر رأينا على افتراض وجود غريزتين أساسيتين فقط . هما الإروس وغريزة التدمير (ويقع فى نطاق الإروس التعارض بين غريزة حفظ الذات وغريزة حفظ النوع ، وكذلك غريزة حب الذات وغريزة حب الموضوع). وهدف الإروس إنشاء وحدات جديدة لا تفتأ تزيد حجما ، والاحتفاظ بها على هذا النحو ، ومن ثمة فهدفها الربط . أما هدف الثانية فهو على الضد : حل الروابط وبالتالى تدمير الأشياء . ويمكن أن نتصور أن الغاية القصوى لغريزة

التدمير هى رد الحى إلى الحالة اللاعضوية . ولذا نسميها أيضاً غريزة الموت . وإذا افترضنا أن الحى متأخر فى الظهور عن غير الحى ، وأنه خرج منه لكان جلياً أن غريزة الموت تطابق المبدأ المذكور وهو أن الغريزة تنزع إلى العود إلى حالة سابقة . أما بالنسبة إلى الإروس (أو غريزة الحب) فلا يمكننا تطبيق مثل هذا القول . وإلا كان لزاماً علينا أن نسلم بأن الجوهر الحى كان وحدة يوماً ما — ثم انقسم إلى أجزاء ويميل الآن إلى معاودة الاتحاد[1] . وفى الوظائف الحيوية تتعارض الغريزتان الأساسيتان أو تتحدان : فعملية الغذاء تدمير للموضوع الغاية النهائية منه إدماجه ، والعملية الجنسية عدوان يرمى إلى أوثق اتحاد . هذا الانسجام والتباين بين الغريزتين الأساسيتين يضفيان على مظاهر الحياة تنوعها. والتناظر بين هاتين الغريزتين الأساسيتين يتجاوز نطاق الكائنات الحية إلى ميدان الكائنات غير الحية ، حيث القوتان المتعارضتان المهيمنتان ، قوتا التجاذب والتنافر[2] .

وللتفاوت فى نسبة امتزاج الغرائز نتائج بينة ظاهرة — فزيادة العدوان الجنسى زيادة مفرطة تحول المحب إلى قاتل من أجل اللذة الجنسية ، كما أن الانخفاض الشديد فى العامل العدوانى يجعل منه خجولا أو عنينا .

ويجب أن نستبعد حصر أى من هاتين الغريزتين فى منطقة واحدة من النفس ؛ فلابد من وجودهما فى كل مكان . ويمكننا أن نصور الموقف فى بادئ الأمر بأن نفترض أن كل الطاقة المتيسرة للإروس — وهى التى سنسميها من الآن بالليبيدو — موجودة فى الأنا والهو قبل تفاضلهما ، وأنها تعمل على معادلة الحوافز التدميرية المصاحبة لها (ويعوزنا اصطلاح مماثل « لليبيدو » للدلالة على طاقة غريزة التدمير) . وبعد ذلك يسهل علينا نسبياً أن نتتبع ما يصير إليه الليبيدو ، وهو أمر أشد مشقة فى حالة غريزة التدمير .

---

(١) تخيل الشعراء شيئاً شبيهاً بهذا ، ولكننا لانعرف مايماثله فى التاريخ الواقعى للجوهر الحى.

(٢) هذا التصور للقوى الأساسية أو الغرائز الذى لا يزال يقاومه المحللون على أنحاء عدة كان مألوفاً من قبل لدى أنبادوقليس فيلسوف أغريفنتا .

وتظل هذه الغريزة ساكنة ما دامت تعمل فى الداخل بوصفها غريزة الموت ، ولا تظهر لنا إلا بعد أن تتحول إلى الخارج بوصفها غريزة التدمير . ويبدو أن حدوث هذا ضرورى لحفظ الفرد ويساعد الجهاز العضلى فى هذا التحول. ويتكون الأنا الأعلى تثبت كميات كبيرة من الغريزة العدوانية داخل الأنا وتعمل ضد الذات على نحو تدميرى . وهذا أحد الأخطار الصحية التى يتقبلها الإنسان فى سبيل النمو الحضارى . وكبح العدوان ضار بوجه عام ، فهو يعمل على الإسقام (الإهلاك) . والشخص فى سورة الغضب يبين كيف يتم الانتقال من العدوان المقيد إلى تدمير الذات ، وذلك بتحويل عدوانه على ذاته ، فهو يجذب شعره أو يلطم وجهه بقبضتيه ، وهذه معاملة كان يود لو وجهها إلى شخص غيره . وعلى أية حال يظل قسم من العدوان الموجه إلى الذات فى الداخل حتى ينجح أخيراً فى أن يفضى بالفرد إلى الموت . وربما كان ذلك أولا حين تستنفد طاقته الليبيدية ، أو تثبت بصورة ضارة . ومن ثمة يمكن أن نفترض على وجه العموم أن الفرد يموت بسبب صراعاته الداخلية ، فى حين أن النوع يموت من جراء كفاحه الفاشل ضد العالم الخارجى . عندما تعتريه تغيرات لا يمكن معالجتها بوسائل التكيف التى اكتسبها .

وعسير أن نقول شيئاً عن سلوك الطاقة الليبيدية فى الهو وفى الأنا الأعلى . وكل ما نعرفه عنها يتعلق بالأنا ، حيث تدخر فى البداية كل الكمية المتاحة من الطاقة الليبيدية . نسمى هذه الحالة بالنرجسية الأولية المطلقة . ويبقى هذا الوضع حتى يبدأ الأنا فى شحن تصورات الموضوع بالليبيدو ، فيتحول الليبيدو النرجسى إلى الليبيدو الموضوعى . ويظل الأنا طوال الحياة المستودع الكبير الذى ترسل منه الشحنات الليبيدية إلى الموضوعات ، وكذلك تسحب إليه ثانية ، كما يصنع جسم بروتوبلازمى بأقدامه الكاذبة . ولا يحدث إلا فى حالة الانغماس الكلى فى الحب أن تنتقل الكمية الرئيسية من الليبيدو إلى الموضوع ، وأن يقوم الموضوع إلى حد ما مقام الأنا . ولليبيدو طابع مهم للحياة هو تنقله أو السهولة التى ينتقل بها من موضوع إلى آخر . وبالعكس يحدث أحياناً أن يتثبت الليبيدو فى

موضوعات معينة تثبيتاً غالباً ما يبقى طوال الحياة .

ولا ريب فى أن لليبيدو مصادر جسمية ، وأنه يتدفق إلى الأنا من أعضاء وأجزاء مختلفة من الجسم . وهو ما يتجلى أوضح تجل فى حالة ذلك القسم من الليبيدو الذى يعرف بالتهيج الجنسى ، وذلك بالنظر إلى غايته الغريزية . ونحن نطلق على أبرز أجزاء الجسم التى ينبعث منها هذا الليبيدو اسم المناطق الشهوية وإن كان الجسم كله فى الواقع منطقة شهوية مماثلة . وأفضل ما نعرفه عن الإيروس ومن ثمة عن علاماته مستمد من دراسة الوظيفة الجنسية ، وهى مطابقة للإروس فى العرف الشعبى ، بل وفى نظريتنا كذلك . وقد تمكنا من تكوين صورة عن السبيل الذى يطرقه الحافز الجنسى ، الذى قيض له أن يؤثر فى حياتنا تأثيراً حاسماً . فقد نما هذا الحافز نمواً تدريجياً من إضافات متتالية لعدد من الغرائز الجزئية التى تمثل مناطق شهوية معينة .

الفصل الثالث

نمو الوظيفة الجنسية

يدعى التصور الشائع أن الحياة الجنسية لدى الإنسان هى فى جوهرها الميل إلى اتصال الأعضاء التناسلية لشخص ما بما يقابلها عند شخص من الجنس الآخر . ويعتبر تقبيل هذا الجسم الغريب ولمسه والنظر إليه ظواهر ثانوية وأفعالا تمهيدية . ولابد لهذا الميل أن يظهر مع البلوغ ،ومن ثمة فى عهد النضوج الجنسى ، وأنه يستهدف الإنسال . على أن ثمة حقائق معروفة لا تدخل فى إطار هذا التصور : (١) فما يلفت النظر ، أن هناك أشخاصاً لا يستهويهم إلا أفراد من جنسهم ، والأعضاء التناسلية لهؤلاء .(٢) ويلفت النظر أيضاً أن هناك أشخاصاً تتسم رغباتهم بالطابع الجنسى ،ولكنهم فى الوقت عينه لا يهتمون بالأعضاء التناسلية ولا باستخدامها الطبيعى . وأمثال هؤلاء الأشخاص يسمون بالمنحرفين . (٣) وأخيراً ، فمن الغريب أن الأطفال الذين يعتبرون لهذا السبب منحلين ، يبدون اهتماماً مبكراً جداً بأعضائهم التناسلية وتظهر عليهم أمارات التهيج بها .

وغنى عن البيان أن التحليل النفسى أثار الاستغراب والاستنكار حين عارض كل الآراء السائدة عن الجنسية مستنداً — فيما استند — إلى هذه الوقائع الثلاث المغفلة وفيما يلى نتائجه الرئيسية : —

(ا) الحياة الجنسية لا تبدأ أولا عند البلوغ ، وإنما تتبدى عقب الميلاد بمظاهر واضحة .

(ب) من الضرورى أن نميز تمييزاً قاطعاً بين مفهومى « الجنسى » و « التناسلى » . فالأول هو المفهوم الأعم ويضم أنواعاً عدة من النشاط لا شأن لها بالأعضاء التناسلية .

(ح) تتضمن الحياة الجنسية وظيفة الحصول على اللذة من مناطق جسمية .

وهى وظيفة ترتب — فيما بعد — لخدمة الإنسال . وغالباً ما لا تتطابق هاتان الوظيفتان تمام التطابق .

ويوجه أعظم اهتمام بالطبع إلى أولى القضايا وهى أغربها جميعا . فنشاهد فى عهد الطفولة المبكر علامات للنشاط الجنسى لا يمكن أن ينكر عليها صفة الجنسية إلا الرأى المغرض القديم ، وهى ترتبط بالظواهر النفسية التى نجدها فيما بعد ، فى حياة الحب عند البالغين ، كالتعلق بموضوعات معينة ، والغيرة ، وما إلى ذلك ، ويتبين فوق ذلك أن هذه الظواهر التى تنبعث فى طور الطفل المبكر تكون جزءاً من عملية تطور منتظمة ، وأنها تمر بنمو مطرد حتى تصل الذروة فى نهاية العام الخامس تقريباً ، تليها فترة سكون . وإبان ذلك يقف التقدم ويُنسى الكثير وينكص . وفى نهاية هذه الفترة التى نسميهامرحلة الكمون — تستأنف الحياة الجنسية عند البلوغ — أو أنها تزدهر ثانية إن صح التعبير . وهذا يؤدى بنا إلى حقيقة هامة — وهى أن الحياة الجنسية ترد على دورتين ، وهو ما لا نجده إلا عند الإنسان ، ولا شك أن له أثراً بالغ الأهمية فى تكوينه[1] . ومما له دلالة أن أحداث هذه الفترة الجنسية المبكرة — ما عدا النزر اليسير منها — تخضع لفقدان الذاكرة الطفلى ، وأن حدوسنا الخاصة بأصول الأعصبة وطريقتنا فى العلاج التحليلى مرتبطة بهذه التصورات . وتتبع التطور فى هذه المرحلة المبكرة ، أمدنا أيضاً بشواهد تؤيد نتائجنا الأخرى .

وأول عضو يظهر بوصفه منطقة شهوية تعرض مطالبها الليبيدية على النفس هى الفم منذ الميلاد . وتتأثر النفس بوظيفته الليبيدية . فنى بادئ الأمر ، يتركز النشاط النفسى كله حول إشباع حاجة هذه المنطقة . ولا شك فى أن هذه المنطقة تقوم أولا وقبل كل شىء بتحقيق حفظ الذات بواسطة التغذية . ولكن يجب

---

(١) هناك فرض يذهب إلى أن الإنسان انحدر عن حيوان ثدبى كان يبلغ النضوج الجسمى فى سن الخامسة ، ثم طرأ على النوع من الأحداث الكبرى الخارجية اطراد نموه وقطع التطور الجنسى ويمكن أن يكون لهذا علاقة أيضاً ببعض الفروق الأخرى بين الحياة الجنسية عند الإنسان والحياة الجنسية عند بعض الحيوانات ، كزوال الموسمة الليبيدية ، وتحول دور الحيض فى العلاقة الجنسية .

ألا نخلط بين الفسيولوجيّ وعلم النفس . فإلحاح الطفل فى المص وتشبثه به فى مرحلة مبكرة ينم بوضوح عن حاجة إلى الإشباع ، على الرغم من أنها حاجة تنبعث عن تناول الغذاء وتتأثر به ، إلا أنها تسعى إلى الحصول على لذة مستقلة عن التغذية ، وبالتالى يمكن ويجب أن توصف بأنها جنسية .

وفى خلال هذه المرحلة الفمية ، تظهر الحوافز السادية فى فترات متقطعة بظهور الأسنان . ويزداد مقدار هذه الحوافز زيادة عظيمة إبان المرحلة الثانية التى نسميها « المرحلة السادية الشرجية » ، لأن الإشباع فيها يطلب فى العدوان وفى وظيفة الإخراج . ونبرر هنا إدماج الحوافز العدوانية فى الليبيدو بافتراض أن السادية مزيج غريزى لحوافز ليبيدية خالصة مع حوافز تدميرية خالصة ، وهو مزيج لا يكف أبدا[1] .

المرحلة الثالثة نسميها « المرحلة القضيبية » . وهى على نحو ما بشير بالشكل النهائى للحياة الجنسية ، بل وتشبهها شبهاً عظيماً . وجدير بنا أن نلاحظ أن ما يلعب دوراً هاماً فى هذه المرحلة ليس هو الأعضاء التناسلية عند الجنسين ، بل هو العضو التناسلى الذكر فحسب (القضيب) . أما الأعضاء التناسلية للأنثى فتظل مجهولة زمناً طويلا . فالطفل فى محاولته فهم العمليات الجنسية ، يأخذ بالنظرية المخرجية الجديرة بالاعتبار * وهى نظرية لها تبرير تكوينى[2] .

ومع المرحلة القضيبية وفى خلالها ، تبلغ الجنسية الطفلية الأولى ذروتها وتقترب من اضمحلالها . ومن الآن فصاعداً تختلف مصائر الصبيان والبنات . فقد بدأ

---

(١) يصح هنا أن نتساءل عما إذا كان إشباع الحوافز الغريزية التدميرية الخالصة لاذا ، وعما إذا كان يمكن حدوث تدمير خالص خلو من أى مضمون ليبيدى . ويبدو أن إشباع ما يتبقى فى الأنا من غريزة الموت لا يحدث مشاعر لاذة . وإن كانت المازوشية تمثل مزيجاً شبيهاً بالسادية .

(٢) يرى البعض أن هناك تهيجات فرجية فى مرحلة مبكرة . ولكن الأرجح أنها تهيجات فى البظر أى فى عضو شبيه بالقضيب ، بحيث لا يمكن أن تمنعنا هذه الحقيقة عن وصف المرحلة بأنها قضيبية .

* يعتقد الطفل أن أعضاء الأنثى التناسلية لا تختلف عن أعضاء الذكر وأن الجماع والولادة يتمان جميعاً عن طريق الشرج — المترجمان .

الفريقان ونشاطهما الذهنى موقوف على البحث الجنسى ، وكلاهما اشتركا فى افتراض وجود القضيب عند الجميع . ولكن طرق الجنسين تفترق الآن ، فيدخل الصبي الطور الأوديبي ، ويأخذ يعبث بقضيبه عبثاً تصحبه أخيلة أنه يزاول به نوعاً من النشاط الجنسى ذا صلة بأمه ، إلى أن يعانى أعظم صدمة فى حياته ، تحت تأثير تلاقى التهديد بالخصاء برؤيته المرأة عاطلة عن القضيب ؛ وبذلك يدخل طور الكمون بكل نتائجه . أما البنت ، فبعد سعيها سعياً فاشلا فى منافسة الصبية ، تدرك خلوها عن القضيب ، أو على الأصح تفاهة بظرها ، مما يخلف آثاراً دائمة فى نمو الخلق ؛ ويغلب أن تؤدى هذه الخيبة الأولى فى المنافسة إلى العزوف التام عن الحياة الجنسية .

ونخطئ إذا اعتقدنا أن هذه المراحل الثلاث تتميز عن بعضها تميزًا دقيقا ، فقد تظهر واحدة منها إلى جانب الأخرى ، أو تتداخل معها ، أو تتلاقى جميعا .

وفى الأطوار الأولى ، يعمل كل حافز غريزى جزئى على طلب اللذة مستقلا عن سائر الحوافز . أما فى المرحلة القضيبية فنجد بوادر تنظيم تخضع فيه سائر الحوافز لسيطرة أعضاء التناسل ، ويندمج كثير من ضروب نشدان اللذة فى الوظيفة الجنسية .

والتنظيم الكامل لا يدرك إلا عند البلوغ ، فى مرحلة رابعة تناسلية . وهنا يقوم نظام نجد فيه : — (١) أن كثيراً من الشحنات الليبيدية الأولى تُستبقى . (٢) وأن شحنات أخرى تندمج فى الوظيفة الجنسية بوصفها أفعالاً تمهيدية أو ثانوية يحدث إشباعها ما يسمى باللذة التمهيدية . (٣) وميول أخرى تستبعد من هذا التنظيم ، فإما أن تقمع (أو تكبت) بوجه عام ، أو أن تستخدم داخل الأنا فى طريق آخر ، فتكوّن سمات خلقية ، أو تخضع للتسامى بتعطل أهدافها .

ولكن هذه العملية لا تتحقق دائماً على الوجه الأكمل . فضروب الكف فى تطورها تكشف عن نفسها فى الاضطرابات المختلفة فى الحياة الجنسية . فيظل الليبيدو إذ ذاك متشبثاً بحالات المراحل الأولى . وهنا يحدث اضطراب فى الهدف الجنسى السوى مميز للانحراف . ومثل هذا الكف فى النمو الجنسى نجده مثلا

فى الجنسية المثلية — إذا كانت سافرة . ويبين التحليل أن التعلق بشخص من نفس الجنس كان موجوداً فى وقت ما فى كل الحالات ، وفى معظم الحالات ظلت هذه الجنسية المثلية فى حالة كمون . ومما يزيد الأمر تعقيداً بوجه عام أن العمليات الضرورية للوصول إلى حالة سوية لا تتحقق كلها ، ولا تنعدم بالمرة ؛ بل هى تتحقق تحققا جزئيًّا بحيث تتوقف الصورة النهائية على هذه العلاقات الكمية . وهكذا فإن التنظيم التناسلى يتحقق ، ولكنه يضعف نتيجة لوجود أجزاء من الليبيدو لم تتوحد وظلت مثبتة على موضوعات وأهداف ثابتة سابقة على الطور التناسلى . ويبدو مثل هذا الضعف فى ميل الليبيدو إلى العودة إلى سابق أحواله قبل التناسلية (النكوص) فى حالات عدم الإشباع أو الصعوبات الحقيقية .

وقد أمكننا أثناء دراستنا للوظائف الجنسية أن نصل إلى اقتناع أول مؤقت ، أو على الأصح ، إلى افتراض يتصل بمسألتين ستتبين فيما بعد أهميتهما بالنسبة إلى موضوعنا كله ، أولا : — أن الظواهر السوية والشاذة التى نلاحظها (أعنى وصف ظواهر الموضوع) ، تستلزم أن نصفها من وازية الديناميات والكم (فى حالتنا هذه من زاوية التوزيع الكمى للطاقة الليبيدية) . ثانياً : أن أصول الاضطرابات التى ندرسها يجب البحث عنها فى تاريخ تطور الفرد ، أعنى فى العهد الأول من حياته .

الفصل الرابع

الكيفيات النفسية

وصفنا بنيان الجهاز النفسي والطاقات أو القوى الفعالة فيه ، وتتبعنا فى مثال مميز ملفت كيف تنتظم تلك الطاقات ولا سيما الليبيدو فى وظيفة فسيولوجية مرتبة لغاية حفظ النوع . ولم يكن فى هذا كله ما يوضح الطابع النوعى لما هو نفسى ، إذا استثنينا بطبيعة الحال هذه الحقيقة الواضحة : وهى أن الطاقات إنما هى أساس الوظائف التى نسميها حياتنا النفسية . ولننظر الآن فى خاصة تنفرد بها الظاهرة النفسية ويراها العرف السائد مطابقة لها .

إن بداية هذا البحث واقعة لا مثيل لها تأبى كل توضيح ووصف وهى الشعور . وهكذا فإذا تحدث المرء عن الشعور ،عرف المقصود بذلك مباشرة ، بخبرة شخصية إلى أبعد مدى[1] . ويقنع الكثيرون من بين المشتغلين بالعلم وغير المشتغلين به، بافتراض أن الشعور هو وحده النفسىّ ومن ثمة لا يبقى لعلم النفس من عمل إلاّ التمييز داخل نطاق الظواهر النفسية بين الإدراكات الحسية ، والمشاعر الوجدانية ، والعمليات الفكرية ، والأفعال الإرادية . ومع ذلك فإن من المتفق عليه أن هذه العمليات الشعورية ليست سلاسل متصلة متماسكة ، بحيث لا نرى مفرًّا من افتراض وجود عمليات مادية أو جسمية تصاحب العمليات النفسية ، ولابد أن نسلم بأن هذه العمليات الجسمية أكثر تماسكاً من السلاسل النفسية ، من حيث إن بعضها يقابله عمليات شعورية موازية له أما البعض الآخر فلا يقابله شىء . فطبيعى إذاً فى علم النفس أن نبرز هذه العمليات الجسمية . وأن نعتبرها الجوهر الحقيقى للظاهرة النفسية ، وأن نحاول الوصول إلى تقدير جديد

---

(١) يعتقد اتجاه متطرف مثل السلوكية الأمريكية المولد أن من الممكن إقامة علم النفس يتجاهل هذه الواقعة الأساسية !

للعمليات الشعورية . إلاأن غالبية الفلاسفة وكثيرين غيرهم يناهضون هذا الرأى ويصرحون بأن اللاشعور النفسى خُلْف .

ولكن التحليل النفسى مضطر إلى عمل هذا بالذات ، وهذا هو فرضه الأساسى الثانى . فالتحليل النفسى يصرح بأن ما زعمناه من عمليات جسمية مصاحبة ، ليست إلا الظواهر النفسية فى جوهرها ، ويغفل مؤقتاً الكيفية الشعورية وهو فى ذلك ليس وحده . فقد عبر كثير من المفكرين كتيودور لپس مثلاً — عن نفس الرأى فى ألفاظ مماثلة . وقد اشتدت الحاجة إلى إدخال مفهوم اللاشعور فى التفكير السيكولوجى ، بعدما بدا من قصور التصور السائد عن طبيعة الظاهرة النفسية ، ولكن هذا الاتجاه كان عديم التأثير فى العلم ، من جراء ما اكتنفه من غموض وعدم تحديد .

وقد يبدو أن هذا الخلاف بين التحليل النفسى والفلسفة ليس إلا مسألة تافهة تنصب على التعريف : إن كان يجب إطلاق اسم النفسىّ على إحدى هذه السلاسل أو السلسلة الأخرى . والواقع أن هذه الخطوة على أعظم جانب من الخطورة . فالفريق الذى لا يعنى إلا بدراسة الشعور لا يستطيع مطلقاً أن يتعدى هذه السلسلة المتقطعة من الظواهر التى يبدو بوضوح أنها تعتمد على ظواهر جسمية مغايرة ، فى حين أن الرأى الآخر الذى يذهب إلى أن الظاهرة النفسية هى فى ذاتها لا شعورية يتيح لعلم النفس أن يتبوأ مكانه بوصفه علماً طبيعيًّا بين العلوم الطبيعية الأخرى . فالعمليات التى يعنى بها ليست — فى ذاتها — مدركة ، مثلها فى ذلك مثل العمليات التى تبحث فيها العلوم الأخرى ، كالعمليات الكيمائية أو الطبيعية ؛ ولكن من الممكن تعيين القوانين التى تسيطر على هذه العمليات ، وتتبع علاقاتها المتبادلة واعتماد بعضها على بعض على نطاق واسع . وهكذا يمكن أن نصل إلى فهم خاص بمجال الظواهر الطبيعية . ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بوضع فروض جديدة ، وخلق مفهومات مستحدثة . ولا ينبغى أن نغض من قدر هذه الفروض والمفاهيم فنعتبرها شواهد على تخبطنا ، بل ينبغى على الضد أن نقدرها حق قدرها وأن نعتبرها منمية للعلم ، مزيدة فى ثرائه . بل ويجدر بنا

أن ننظر إليها بوصفها تفسيرات تقريبية مساوية فى القيمة لمثيلاتها فى العلوم الطبيعية الأخرى . ونحن ننتظر أن تعدل هذه التفسيرات التقريبية وأن تصحح وأن يزيد تحديدها دقة ، بقدر ما تزيد تجاربنا وتمحص . فليس من الغرابة فى شىء إذن أن تظل مفاهيم العلم الجديد ومبادئه الأساسية (الغريزة والطاقة العصبية إلخ ..) على هذا القدر من عدم التحديد . كما ظلت مفاهيم العلوم القديمة (القوة ، والكتلة ، والجذب) .

تقوم العلوم جميعاً على مشاهدات وتجارب نصل إليها من خلال جهازنا النفسى . ولكن لما كان موضوع علمنا هو هذا الجهاز بالذات فإن المماثلة تنتهى هنا . فنحن نباشر مشاهداتنا من خلال جهاز الإدراك الحسى ذاته بمساعدة الفجوات فى الظواهر النفسية مباشرة بأن نملأها باستدلالات وجيهة ونترجمها إلى مادة شعورية ، وبهذه الطريقة نضيف إلى الظواهر النفسية اللاشعورية سلسلة من العمليات الشعورية مكملة لها . ويقوم اليقين النسبى فى علمنا النفسى على وجاهة هذه الاستدلالات . وسيجد كل من يتعمق فى هذا العمل أن طرقنا العلاجية تصمد أمام كل نقد .

وفى هذا العمل تواجهنا ضرورة التمييز بين أحوال معينة هى التى نسميها بالكيفيات النفسية . ولا حاجة بنا إلى تحديد ما نعنيه بالشعور ، فهو نفسه معنى الشعور لدى الفلاسفة والعامة . وكل ما عدا ذلك من الظواهر النفسية فهو عندنا لاشعورى . ولابد لنا بعد ذلك من التسليم بانقسام هذا اللاشعور انقساماً هاماً : فبعض العمليات تغدو شعورية فى يسر ، ثم لا تلبث أن تعود إلى سيرتها الأولى ، ولكنها قد تصبح شعورية ثانية بلا عناء ؛ أو كما يقال — يمكن أن تستعاد وأن تتذكر . وهذا ينبهنا إلى أن الشعور عادة حال سريع الزوال ، فما هو شعورى يظل شعورياً لحظة فحسب . وإذا كانت إدراكاتنا الحسية لا تؤيد هذا القول ، فإن التناقض ليس إلا ظاهرياً . ويمكن أن يفسر بأن منبهات الإدراك الحسى يمكن أن تدوم أمداً ما ، بحيث يتكرر إدراكنا الحسى لها طوال هذا الأمد . ويمكن أن يتضح الموقف بأكمله فى الإدراك الحسى الشعورى ،

لعملياتنا الفكرية . صحيح أن هذه العمليات يمكن أن تدوم إلا أنها يمكن أيضاً أن تنتهى فى لمحة عين ، ولذا يحسن بنا أن نسمى كل ظاهرة لاشعورية تنهج هذا النهج وتستطيع بسهولة أن تستبدل الحالة الشعورية بالحالة اللاشعورية بظاهرة يمكن أن تصبح شعورية أو بظاهرة قبلشعورية . وقد علمتنا التجربة أن كل العمليات النفسية تقريباً ، حتى ما كان منها بالغ التعقيد يمكن أن تظل قبلشعورية أحياناً ، وإن كانت كلها — عادة — تجاهد للوصول إلى الشعور على حد قولنا .

وهناك عمليات ومواد نفسية أخرى لا يتسنى لها هذا الانتقال اليسير إلى الحالة الشعورية بل يتعين أن تستنتج ، وأن تكتشف ، وأن تترجم إلى صيغة شعورية بالطريقة التى وصفناها . ولها نحتفظ باسم « اللاشعور » بالمعنى الدقيق ، وبذا نكون قد أضفنا إلى العمليات النفسية كيفيات ثلاثاً — فهى إما شعورية أو قبلشعورية ، أو لا شعورية . وليس الفصل بين هذه الأصناف الثلاثة من المضمونات مطلقاً ولا دائماً . فما هو قبلشعورى يمكن أن يصبح شعورياً كما رأينا بدون تدخل من جانبنا . وما هو لاشعورى يمكن أن يصبح شعورياً بفضل جهودنا ، وإن كنا نحس أثناء هذا أن علينا أن نتغلب على مقاومات غالباً ما تكون بالغة العنف . وعندما نقوم بهذه المحاولة على شخص آخر ، فعلينا ألا ننسى أن ملء الفجوات الموجودة فى إدراكاته الحسية ، أى التأويل التركيبى الذى نقدمه إليه ، لا يعنى أننا قد حولنا المضمون اللاشعورى المعين عنده إلى شىء شعورى بالنسبة إليه . كل ما فى الأمر أن المسألة لديه تأخذ شكلين : الشكل الأول هو التأويل الشعورى الذى نقدمه إليه ، والشكل الثانى هو الحالة اللاشعورية الأصلية . وتنجح جهودنا الدائبة عادة فى تحويل هذه المادة اللاشعورية إلى مادة شعورية بالنسبة إليه ، بحيث تنطبق الصيغتان إحداهما على الأخرى . ويتفاوت بحسب الحالات مقدار المجهود الذى يتعين علينا أن نبذله والذى نقيس به المقاومة ضد التحول إلى الشعور . فما يحدث مثلا بفضل ما نبذله من جهد فى علاج تحليلى ، يمكن أن يحدث تلقائياً أيضاً . فقد يمكن لمضمون لا شعورى عادة أن ينتقل إلى ما قبل الشعور ، ثم يصبح شعورياً وهو ما يحدث ، على نطاق

واسع ، فى الحالات الذهانية . وهذا يؤدى بنا إلى القول بأن الاحتفاظ بقدر معين من المقاومات الداخلية شرط لحالة السواء . وفى حالة النوم تقل هذه المقاومات وبندفع المضمون اللاشعورى وبذلك يتوفر شرط تكوّن الأحلام . وعلى الضد فقد يصبح المضمون القبلشعورى — لحين ما — بعيد المنال ، منعزلا نتيجة للمقاومات ، كما يحدث فى حالات النسيان العابر (الهفوات) . أو قد ترد فكرة قبلشعورية ارتداداً مؤقتاً إلى الحالة اللاشعورية وهو شرط النكتة على ما يبدو ، وسنرى أن ارتداد المضمونات (أو العمليات) القبلشورية إلى الحالة اللاشعورية على هذا النحو ، يقوم بدور كبير فى إحداث الاضطرابات العصابية .

وقد يبدو أن نظرية الكيفيات الثلاث للظواهر النفسية كما عرضناها على هذا النحو المبسط العام ، هى بالأحرى مصدر لغموض وخلط لا نهاية له ، وليست مما يعين على الوضوح . ولكن علينا ألا ننسى أنها ليست نظرية بالمعنى الدقيق ، بل تقرير أولى للوقائع التى نشاهدها ، وأنها تحاول أن تظل قريبة ما أمكن من تلك الوقائع ولا تسعى إلى تفسيرها . أما ضروب التعقيد التى تكشف عنها فهى تظهرنا على الصعوبات الخاصة التى علينا أن نتغلب عليها فى بحثنا ، ويحتمل أيضًا أن تزيدنا هذه النظرية علماً إن تتبعنا علاقات الكيفيات النفسية بما أسميناه بالقطاعات أو « المنظمات » التى سلمنا بوجودها فى الجهاز النفسى ، وإن كانت هذه العلاقات بدورها لا تتصف بالبساطة .

ويرتبط فعل الشعور قبل كل شىء بالمدركات التى تتلقاها أعضاء حسنا من العالم الخارجى . فهو إذن ، من الناحية الطوبوغرافية ، ظاهرة تحدث فى اللحاء الخارجى للأنا . ولا شك أننا نتلقى أيضاً انطباعات شعورية من داخل الجسم — هى المشاعر الوجدانية التى تفوق الإدراكات الحسية الخارجية خطراً بالنسبة إلى حياتنا النفسية . أضف إلى هذا أن أعضاء الحس نفسها ترسل المشاعر الوجدانية وأحاسيس الألم ، علاوة على الإدراكات الحسية الخاصة بها . ولكن لما كانت هذه المشاعر الوجدانية كما تسمى تمييزاً لها عن الإدراكات الحسية الشعورية ، تنبعث أيضاً عن الأعضاء المتطرفة ، ولما كنا نعتبر هذه الأعضاء

امتدادات أو مشتقات للحاء، أمكننا التمسك بالقضية السابقة . والفارق سيقتصر على أن الجسم ذاته يحل محل العالم الخارجى ، فيما يتصل بالأعضاء المتطرقة للأحاسيس والمشاعر .

وأبسط تصوير للأمور هو أن نفترض أن العمليات الشعورية موجودة عند سطح الأنا وكل شيء عداها فى الأنا لا شعورى ، والواقع أن الأحوال السائدة عند الحيوان لا تخرج عن هذا . وتتعقد الأمور عند الإنسان لأن العمليات الداخلية فى الأنا يمكنها أيضاً أن تكتسب صفة الشعور . ومرد هذا إلى عمل اللغة فهى تربط مضمونات الأنا بآثار الذاكرة المتصلة بالإدراكات البصرية ولا سيما من الداخل أيضاً ، فيمكن للعمليات الداخلية كالتصورات والعمليات الفكرية أن تصبح شعورية . ومن ثمة نحتاج إلى جهاز خاص للتمييز بين الاحتمالين ، هو ما يسمى باختبار الواقع وبذلك تبطل المعادلة : « الإدراك الحسى = الواقع (العالم الخارجى) » . والأخطاء التى تنشأ بسهولة وتحدث عادة فى الأحلام ، نطلق عليها اسم الهلوسات .

أما داخل الأنا الذى يشتمل فى المحل الأول على العمليات الفكرية، فكيفيته هى ما قبل الشعور . ويتميز الأنا وحده بهذه الكيفية . ولكن لا يصح القول بأن ارتباط آثار الذاكرة باللغة شرط لوجود الحالة القبلشعورية ، بل إن هذه – بالأحرى – لا تتوقف عليه ، وإن كان شرط الكلام دليلاً قاطعاً على أن العملية ذات طبيعة قبلشعورية . ومع ذلك فإن حالة ما قبل الشعور التى تتميز من ناحية بإمكان وصولها إلى الشعور ، ومن ناحية أخرى باتصالها بالبواقى اللغوية . هى حالة خاصة لا تتحدد طبيعتها بهاتين الخاصتين وحدهما . والدليل على هذا أن هناك أقساماً كبيرة من الأنا ، ومن الأنا الأعلى بوجه خاص ، لا يمكن أن ننكر عليها الطابع القبلشعورى ، ولكنها غالباً ما تظل لاشعورية ، بالمعنى الوصفى للكلمة . لا نعرف السبب فى ضرورة هذا . وسنحاول فيما بعد أن نواجه مشكلة الطبيعة الحقيقية لما قبل الشعور .

واللاشعور هو الكيفية الوحيدة المهيمنة فى الهو . فالهو واللاشعور متصلان

اتصالا وثيقاً شأن اتصال الأنا بما قبل الشعور ، بل إن الرابطة هنا أوثق . وإذا ما أعدنا النظر فى تاريخ نمو الفرد وجهازه النفسى لأمكننا أن نميز فى الهو تمييزاً هامًّا ، فنى البداية كان الهو كل شىء ، وقد نما الأنا منفصلاً عن الهو تحت تأثير العالم الخارجى تأثيراً متصلاً . وفى خلال هذا النمو البطىء ، تحولت بعض مضمونات الهو إلى حالة ما قبل الشعور ، ومن ثم أصبحت فى نطاق الأنا . وظلت مضمونات أخرى بغير تغيير فى الهو بوصفها نواته التى يصعب الوصول إليها . ولكن الأنا الحدث الضعيف تخلى — فى خلال هذا النمو — عن بعض المضمونات التى كان قد ضمها إلى نطاقه ، ودفع بها إلى اللاشعور ، كما أنه اتخذ موقفاً إزاء كثير من الانطباعات الجديدة ، كان فى وسعه أن يدخلها فى نطاقه ، فنبذها ولم تخلف أثراً إلا فى الهو وحده . وإن اعتبرنا الأصل فنحن نسمى هذا القسم من الهو بالمكبوت . ولا يهمنا كثيراً أننا لا نستطيع دائماً أن نميز تمييزاً قاطعاً بين هذين النوعين فى لهو . وهما ينطبقان تقريباً على التمييز بين ما كان موجوداً فى الأصل وما اكتسب خلال تطور الأنا .

والآن وقد قطعنا بالرأى فى انقسام الجهاز النفسى انقساماً طوبوغرافيًّا إلى أنا وهو ، وما يصحبه من التمييز المقابل له بين الكيفية القبلشعورية واللاشعورية ، وقررنا أن هذه الكيفية ليست إلا علامة مميزة وأنها ليست جوهره ، فإنا نواجه مشكلة جديدة : ما طبيعة الحالة التى تتجلى فى الهو من خلال كيفية اللاشعور وفى الأنا من خلال كيفية القبلشعور وما وجه الاختلاف بين الاثنين ؟

ولكنا لا نعرف عن هذا شيئا . ولا تكاد ومضة من ضياء تنير ظلام جهلنا الدامس . فقد اقتربنا هنا من سر الظواهر النفسية الحق الذى لم ينكشف بعد . فنحن نفترض ، جرياً على ما عودتنا عليه العلوم الطبيعية الأخرى ، أن ثمة نوعاً من الطاقة يكون فعالاً فى الحياة النفسية . ولكنا لا نملك من الوقائع ما يسمح لنا بأن نزيد معرفتنا بها ، عن طريق المماثلة بينها وبين صور الطاقة الأخرى . ونعتقد أننا نعرف أن الطاقة العصبية أو النفسية توجد فى صورتين : إحداهما طليقة والثانية مقيدة بالأخرى ، ويعبر عن هذا بشحن المضمونات النفسية وإضافة

شحنها . بل ونذهب إلى حد القول بأن إضافة الشحن تؤدى إلى نوع من تركيب للعمليات المختلفة ، تركيب يحوّل الطاقة الطليقة إلى طاقة مقيدة ، ولم نستطع أن نذهب إلى أبعد من هذا . ومع ذلك فنحن نؤمن تماماً بالقول بأن التمييز بين الحالة اللاشعورية والحالة القبلشعورية قائم أيضاً فى علاقات دينامية معينة — مما يفسر كيف يمكن للواحدة منها أن تتحول إلى الأخرى— سواء أحدث هذا تلقائياً أم بمعونتنا .

غير أن ثمة حقيقة جديدة وراء كل هذه الشكوك ندين باكتشافها لأبحاث التحليل النفسى . فقد عرفنا أن العمليات التى تقع فى اللاشعور أو فى الهو تخضع لقوانين مغايرة للقوانين السارية فى الأنا القبلشعورى . ونسمى هذه القوانين فى جملتها بالعمليات الأولية ، تمييزاً لها عن العمليات الثانوية التى تسيطر على الظواهر التى تجرى فيما قبل الشعور أو فى الأنا . وهكذا أثبتت دراسة الكيفيات النفسية — فى النهاية — أنها ليست عقيمة .

الفصل الخامس

تعليق على تفسير الأحلام

إن بحث الحالات السوية المستقرة التى تكون فيها حدود الأنا مؤمّنة صامدة حيال الهو بواسطة المقاومات (الشحنات المضادة) ، وحيث لا يتمايز الأنا الأعلى عن الأنا لأنهما يعملان معاً فى انسجام — إن بحثاً كهذا لايعلمنا الكثير . ولايفيدنا إلا حالات الصراع والعصيان التى تحدث عندما تتاح لمحتوى الهو اللاشعورى فرصة للتوغل داخل الأنا والشعور ، ويكافح الأنا من جديد لحماية نفسه من هذا الغزو . فى هذه الأحوال فحسب يمكننا أن نقوم بمشاهدات تدعم أو تصحح آراءنا فى الشريكين [الأنا والهو] . والنوم حالة من هذا النوع ، لذلك كان النشاط النفسى الذى يتبدى أثناءه فى صورة الأحلام ، أنسب موضوع للدرس . وبهذه الطريقة أيضاً نتحاشى الاتهام الذى يوجه إلينا كثيرا — بأننا نبنى الحياة النفسية السوية وفقاً للنتائج المرضية — إذ أن الحلم ظاهرة شائعة فى حياة الأسوياء ، مهما تمايزت خصائصه عن ظواهر حياتنا اليقظة . وكلنا نعرف أن الحلم قد يكون مختلطاً مستغلقاً بل وقد يكون خلوًّا من المعنى ، وقد تناقض مضموناته أحياناً كل ما نعرفه عن الواقع ، وأننا نسلك فيه سلوك المجانين ، لأننا — ونحن نحلم — نضفى صفة الواقع الموضوعى على مضمونات الحلم .

ويمكننا أن نتوصل إلى فهم الحلم (أو « تفسيره ») إذا افترضنا أن مانذكره منه عند اليقظة ليس عملية الحلم الحقيقية بل هو واجهة يستتر وراءها هذه العملية . ذلك تمييزنا بين المضمون الظاهر للحلم ، وأفكار الحلم الكامنة . ونسمى العملية التى تحول الأخيرة إلى الأولى صياغة الحلم . وتقدم لنا دراسة صياغة الحلم مثالاً ممتازاً عن النحو الذى تفرض به مواد اللاشعور فى الهو — أصيلة كانت أم مكبوتة — نفسها على الأنا ، فتصبح قبلشعورية ، وأن تعانى بسبب مقاومة الأنا تلك التغيرات

التى نسميها تشويه الحلم . وما من سمة فى الحلم إلا أمكن تفسيرها على هذا النمط .

والأفضل أن نبدأ بملاحظة أن ثمة طريقين لتكوّن الحلم : فإما أن يكون لحافز غريزى مقموع عادة (رغبة لا شعورية) من القوة ما يكفى للتأثير فى الأنا أثناء النوم ، أو أن يتسنى لميل مستبعد من حياة اليقظة ، أى لسلسلة من الأفكار القبلشعورية — بكل ما يتصل بها من حوافز متصارعة — أن تزداد فى النوم قوة بانضمام عنصر لا شعورى إليها . وهكذا يصدر عدد من الأحلام عن الهو وعدد آخر من الأنا ، وتستوى الحالتان فى طريقة تكوين الأحلام فيهما ، وكذلك فى شرطهما الدينامى . ويعطل الأنا وظائفه مؤقتاً ويرتد إلى حالة سابقة تفصح عن حقيقة نشأته من الهو . ويتم هذا دائماً بأن يقطع [الأنا] علاقاته بالعالم الخارجى ، ويسحب شحناته من أعضاء الحس . فيمكن أن نقول بحق إن ثمة دافعاً — هو دافع النوم — ينبعث عند الميلاد ، ويهدف إلى معاودة الحياة المتقضية داخل الرحم . فالنوم عود من هذا النوع إلى رحم الأم . ولما كان الأنا اليقظان يسيطر على الحركة فإن هذه الوظيفة تفشل فى حالة النوم ، ومن ثمة تنتفى الحاجة إلى جانب كبير من ضروب الكف المفروضة على الهو اللاشعورى . وسحب هذه الشحنات المضادة أو إنقاصها يتيح للهو قسطاً غير ضار من الحرية . والأدلة على دور الهو اللاشعورى فى تكوين الحلم كثيرة مقنعة : (ا) فذاكرة الحلم أشمل من الذاكرة فى حالة اليقظة . فالأحلام تعيد ذكريات نسيها الحالم وليست فى متناوله عند يقظته . (ب) يستخدم الحلم عدداً كبيراً من الرموز اللغوية التى لا يعرف الحالم معناها فى أغلب الأحيان . بيد أننا نستطيع — بفضل خبرتنا — التحقق من معناها . ويبدو أنها صادرة عن المراحل المبكرة لتطور اللغة . (حـ) غالباً ما تستعيد ذاكرة الحلم انطباعات عن طفولة الحالم المبكرة نستطيع الجزم بأنها قد نسيت بل إنها أصبحت لا شعورية — بالكبت . وهو ما يفسر العون الذى لا غنى عنه والذى تزودنا به الأحلام عندما نحاول أن نستنبط العهد الأول من حياة الحالم أثناء العلاج التحليلى للأمراض العصابية . (د) علاوة على هذا ، يفصح الحلم عن مضمونات لا يمكن أن يكون مصدرها الحياة الناضجة ،

ولا عهد طفولة الحالم المنسى . ويتعين علينا أن نعتبر هذه المضمونات جزءاً من التراث القديم الذى آل إلى الطفل من خبرة الأسلاف ، والذى يجلبه معه إلى العالم قبل أية خبرة معينة . ونجد ما يوازى هذه المواد الخاصة بالنشوء النوعى فى أقدم أساطير الإنسان ، وفى العادات المتبقية . فالحلم يمدنا إذن بمصدر لا يستهان به لما قبل التاريخ الإنسانى .

وما يجعل للحلم فى نظرنا قيمة لا تقدر ، إظهاره النحو الذى تغزو به المواد اللاشعورية الأنا . أى أن الأفكار القبلشعورية التى تجد فيها [المواد اللاشعورية] تعبيراً عن نفسها تعامل — فى عملية صياغة الحلم — كما لو كانت أقساماً لاشعورية من الهو . أما فى الطريقة الأخرى لتكوين الحلم فإن الأفكار القبلشعورية التى تعززت بدافع غريزى لا شعورى تعود إلى حالة اللاشعور . وبهذه الطريقة فقط يمكننا أن نكتشف قوانين ما يحدث فى اللاشعور ، وأوجه الخلاف بينها وبين القواعد المألوفة لنا فى التفكير اليقظ . فصياغة الحلم إذن هى فى جوهرها حالة من حالات المعالجة اللاشعورية للعمليات الفكرية القبلشعورية . ويمكن التشبيه بذلك من التاريخ : يحكم الفاتحون الغزاة بلداً مهزوماً بحسب شريعتهم الخاصة ، لا بحسب الشريعة القائمة به سلفاً . ولكن لا شك أن نتيجة صياغة الحلم هى التوفيق بين الأضداد . فإن تنظيم الأنا لم يشل بعد تماما ، فيمكن تبين تأثير تنظيم الأنا الذى لم يشل بعد فى التحريف المفروض على المادة اللاشعورية ، وفيما يكون غالباً محاولة فاشلة لإعطاء النتيجة النهائية صورة يقبلها الأنا (المعالجة الثانوية) . وفى تشبيهنا السالف ، يكون ذلك تعبيراً عن مقاومة المغلوبين المستمرة .

وقوانين ما يحدث فى اللاشعور ، وقد تتكشف على هذا النحو ، ملفتة للنظر وكافية لتفسير معظم ما يبدو لنا غريباً فى الحلم . هناك قبل كل شىء نزوع أخاذ إلى التكثيف ، أى ميل إلى تكوين وحدات جديدة من عناصر يتعين علينا فى تفكير اليقظة أن نميز بينها . ونتيجة لهذا يمكن غالباً أن يمثل العنصر الواحد من عناصر الحلم الظاهر عدداً من أفكار الحلم الكامنة ، كما لو كانت تلميحاً يشير إليها جميعاً ، وهو بوجه عام مختصر اختصاراً فريداً بالقياس إلى

المادة الغنية التي صدر عنها . وهناك خاصة أخرى للحلم متصلة إلى حد ما بالخاصة السابقة هي سهولة نقل الشحنات النفسية من عنصر إلى آخر (الشحن) بحيث نجد عنصراً من عناصر الحلم الظاهر بدا وكأنه أوضح العناصر ومن ثمة أهمها بينما كان ثانوياً بالنسبة لأفكار الحلم ، وعلى العكس من ذلك فإن العناصر الجوهرية من أفكار الحلم فى الحلم الظاهر تتمثل فى تلميحات تافهة . أضف إلى هذا أن صياغة الحلم تكتفى — عادة — بأتفه علاقة بين عنصرين ، لكى تحل أحدهما محل الآخر فى أية حالة أخرى ، ويمكن أن نتصور بسهولة كيف تعمل حيلتا التكثيف والنقل هاتان على زيادة صعوبة تفسير الحلم والكشف عن العلاقات بين الحلم الظاهر وأفكار الحلم الكامنة . ومن وجود هاتين النزعتين نحو التكثيف والنقل ، تستنتج نظريتنا أن الطاقة فى الهو اللاشعورى — تتمتع بقسط أوفر من حرية الحركة ، وأن الهو يهتم فوق كل شىء بتفريغ كميات التهيج[1] ؛ وتستخدم نظريتنا هاتين الخاصتين فى تحديد سمات العمليات الأولية التى نسبناها إلى الهو .

وقد تعلمنا — من دراسة صياغة الحلم — خصائص كثيرة أخرى ، هامة بقدر ما هى ملفتة ، للعمليات التى تجرى فى اللاشعور . ولكننا لن نستطيع هنا أن نذكر منها إلا القليل . فقواعد المنطق القاطعة لا قيمة لها فى اللاشعور ، بل يمكن القول بأنه مملكة اللامنطق . فالحوافز ذات الأهداف المتعارضة توجد جنباً إلى جنب فى اللاشعور ، دون أن تقوم أدنى حاجة إلى التوفيق بينها . ولا تقوم بينها أحيانا أى تأثير متبادل ، أما إذا وجد هذا التأثير ، فقد لا يتخذ أى قرار بل يأتى توفيق سخيف ، لأنه يتضمن عناصر متعارضة . وبالمثل لا تظل الأضداد منفصلة الواحد منها عن الآخر ، بل تعالج كما لو كانت شيئاً واحداً بحيث يمكن لأى عنصر فى الحلم الظاهر أن يدل على نقيضه تماما . وقد تنبه بعض اللغويين إلى أن هذا يصدق بالمثل على أقدم اللغات ، وأن الأضداد

---

(١) مثال هذه قصة ضابط الصف الذى يتقبل — صامتاً — تقريعاً عنيفاً من رئيسه ولكن غضبه يجد له منفذاً فى أول نفر برىء يقابله صدفة .

مثل : قوى وضعيف ، منير ومظلم ، مرتفع ومنخفض ، كان يعبّر عنها فى الأصل بمصدر واحد ، إلى أن استخدم اشتقاقان مختلفان للكلمة الأصلية — للتمييز بين معنيين ، ويبدو أن آثار هذا المعنى البدائى المزدوج بقيت حتى فى اللغات التى وصلت إلى مرتبة عليا فى التطور كاللغة اللاتينية ، كما نجد فى استخدام *altus* ومعناها (مرتفع ومنخفض) *acer* (مقدس ودنس) وغيرهما .

ونظراً لتعقد العلاقات وغموضها بين الحلم الظاهر والمضمونات الكامنة خلفه ، يحق لنا أن نتساءل — أى الطرق يسلكه المرء فى المحل الأول للتأدى من إحداها إلى الأخرى ؟ وهل نعتمد على التخمينات الموفقة والتى قد تعززها ترجمة الرموز التى ترد فى الحلم الظاهر ؟ ويمكن أن نجيب على هذا بأن المشكلة يمكن أن تحل حلاً مرضيًّا فى الغالبية العظمى من الحالات ، ولكن هذا لا يتم إلا بمساعدة المستدعيات التى يزودنا بها الحالم نفسه ، من عناصر المضمون الظاهر . وكل طريقة أخرى تعسفية ولا تؤدى إلى اليقين . ولكن مستدعيات الحالم توضح الحلقات الوسطى التى نتمكن بمساعدتها من ملء الفجوات بين المضمون الظاهر والأفكار الكامنة ، وأن نبعث بواسطتها المضمون الكامن للحلم وأن « نفسره » . فلا عجب أن تخفق عملية التفسير هذه التى تسير فى عكس اتجاه عملية صياغة الحلم فى الوصول إلى اليقين التام .

ويبقى علينا أن نقدم تفسيراً ديناميًّا لهذه الظاهرة — لماذا يكلف الأنا النائم نفسه بمهمة صياغة الحلم ؟ ومن اليسير لحسن الحظ أن نجد هذا التفسير . فإن كل حلم فى دور التكوين يستعين باللاشعور فى مطالبة الأنا بإشباع حافز غريزى إن كان ينبعث من الهو ، أو بحل الصراع ، أو إزالة شك ، أو اتخاذ قرار ، إن كان ينبعث عن بقايا النشاط القبلشعورى فى حياة اليقظة . على أن الأنا النائم يصدر عن الرغبة فى الاحتفاظ بالنوم ، فيحس بهذه المطالبة باعتبارها إزعاجاً ويسعى للتخلص من هذا الإزعاج . ويحقق الأنا هذا بما يشبه الإذعان : إذ تتحقق الرغبة فى هذه الأحوال تحقيقاً لا ضرر فيه ، وبذا يتخلص من

المطالبة . وهذا الإبدال للمطالبة عن طريق تحقيق الرغبة يظل العمل الجوهرى لصياغة الحلم . وقد يحسن بنا أن نصور هذا بثلاث أمثلة بسيطة : حلم جوع ، وحلم راحة ، وحلم رغبة جنسية ، فمثلاً عندما تستبد بحالم — أثناء نومه — حاجة إلى الطعام ، فإنه يحلم بوجبة شهية و يمضى فى نومه . وقد كان له الخيار بالطبع بين أن يستيقظ ليأكل ، أو أن يواصل نومه . ولكنه آثر الأمر الأخير وأشبع الجوع عن طريق الحلم ، إلى حين على الأقل . فإن ألح عليه الجوع فلابد أن يستيقظ . والحالة الأخرى : يجب على النائم أن يستيقظ ليصل فى الوقت المحدد إلى عمله فى العيادة . ولكنه يمضى فى نومه ، ويحلم أنه فى العيادة ، ولكن بوصفه مريضاً لا حاجة به إلى مغادرة الفراش . والمثال الأخير : تنبعث رغبة أثناء الليل فى الاستمتاع بموضوع جنسى محرم ، بزوجة صديق . فيحلم النائم بالاتصال الجنسى ، ولكنه لا يتصل بهذا الشخص ذاته ، بل بآخر يحمل نفس الاسم ، ولا يشعر نحوه — فى الواقع — بميل ما ؛ أو قد تتبدى معارضته للرغبة فى أن تظل خليلته فى الحلم مجهولة الاسم تماما .

وليست كل الحالات طبعاً بهذه البساطة . فى تلك الأحلام التى تنبعث عن بواقى اليوم السابق التى لم تحل ، والتى لم يعترها أثناء النوم إلا تعزيز من اللاشعور ، فى هذه الأحلام لا يكون من اليسير غالباً أن نكتشف القوة اللاشعورية وتحقيق الرغبة المتصلة بها ؛ ولكن لنا أن نفترض أن هذا التحقيق موجود دائماً . والقول بأن الأحلام تحقيق لرغبة قد يؤدى إلى عدم التصديق إن تذكرنا ذلك العدد الكبير من الأحلام التى لها مضمون مؤلم مباشر وتدعو إلى اليقظة فى قلق ، فضلا عن الأحلام العديدة الخالية من كل نبرة وجدانية واضحة . ولكن الاعتراض القائم على أحلام القلق لا يصمد للتحليل . فلا يجب أن ننسى أن الحلم هو دائماً نتيجة صراع ، وأنه نوع من البناء التوفيقى . فما هو إشباع بالنسبة للهو اللاشعورى قد يكون لنفس السبب موضوعاً للقلق بالنسبة للأنا .

وفى أثناء صياغة الحلم ، تكون الغلبة حيناً للاشعور ، وحيناً للأنا . وأحلام القلق هى فى الأغلب تلك الأحلام التى لم يعتر مضمونها إلا تحريف ضئيل .

فإذا كان مطلب اللاشعور من القوة بحيث لا يستطيع الأنا النائم أن يدفعه عن نفسه بالوسائل التى يملكها ، فإنه ينبذ الرغبة فى النوم ، ويعود إلى حياة اليقظة . وتسمح لنا مشاهداتنا كلها أن نقرر أن الحلم فى كل حالة محاولة لإزالة منغصات النوم بتحقيق رغبة . فهو من ثمة حارس النوم . ويتفاوت حظ هذه المحاولة من النجاح ؛ وقد تخفق — وفى هذه الحالة يستيقظ النائم ، ويبدو أن ما يوقظه هو الحلم ذاته . شبيه بهذا ، ذلك الحارس الليلى الشجاع ، الذى وكل إليه أن يرعى نوم سكان القرية الصغيرة ، والذى لا يجد أحياناً مناصاً من أن يطلق النذير ، ويوقظ القرويين النائمين .

ونختتم هذه الملاحظات بعبارة تبرر ذلك الوقت الطويل الذى أنفقناه فى مشكلة تفسير الأحلام . فقد بينت التجربة أن الحيل اللاشعورية التى عرفناها عن طريق دراسة صياغة الحلم ، والتى وضحت لنا تكوين الحلم ، تساعدنا أيضاً فى فهم تكوين الأعراض المرضية الغامضة التى تسترعى انتباهنا فى الأمراض العصابية والذهانية . إن مثل هذا التطابق لا يمكن إلا أن يبعث فينا آمالاً عراضاً .